الموسيقار الصغير

دار العلم للملايين



سلسلة

عبقريات مبكرة

صدر منها

- الطبيب الصغير
- الربان الصغير
- القاضية الصغيرة
- القائد الصغير
- الرياضى الصغير
- الموسيقار الصغير
- المهندس الصغير
- الممرضة الصغيرة
- المخترع الصغير
- لاعب كرة القدم الصغير

دار العلم للملايين





دار العلم للملايين

دار العلم للملايين
صندوق البريد: ١٠٨٥
تلكس: 23166 MLAYIN LE
بيروت - لبنان ١٩٨٨

بقلم وريشة: طارق العسلي
إخراج وإشراف: المهندس طارف عثمان
تنضيد: شركة الحرف الالكتروني
تصوير وطبع: مطبعة نصر الله

١ - مأزق في الطريق

أخذ فارس يُدَنْدِنُ بِلَحْنٍ شَعْبِيٍّ قَديم بينما كانت السيارة تنطلق بسرعة في طريقها نحو دمشق.. إنها سيارةٌ كبيرةٌ للرُّكاب تتسع لأكثر من أربعين شخصاً.. وقد جلس كُلٌّ في مقعده المريح بهدوءٍ وطمأنينة.. كان بعضهم يقرأ جريدة، وبعضهم الآخر اكتفى بالنظر عبر النافذة مراقباً المشاهدَ المتسارعة أمامَه..

الطريق بين بيروت ودمشق ليست طويلة ولا تحتاج إلى أكثر من ثلاث ساعات من السير في طريق تمتد صعوداً وهبوطاً عبر الجبال.. الدنيا بدأت تُظلم وقد مالت الشمس إلى المَغيب، وفارس الجالسُ بجانب أخته الكبيرة كان يشعر بالانشراح والسَّكينة، ولذلك أخذ يدندن بهذا اللحن المحبب إلى نفسه..

لقد مضى عليه وقتٌ طويل لم يغادر فيه مدينة بيروت، بعد أن أمضى السنة الدراسية في جدٍّ واجتهاد، وقد انتهز فرصة العيد ليرافق أخته في زيارة لأحد أقربائهم في دمشق، فهذه الرحلة ستريحه قليلاً وتبعده عن أجواء الدراسة، حتى يعود بعد انتهاء العيد إلى الدرس بحماسة ونشاط جديدين..

إنه في الثالثة عشرة من عمره، نشيطٌ ومجتهد وهوايتُه المحببة هي الموسيقى. لكنه لم يدعْ تلك الهواية تشغله عن دروسه، فهو لا يمارسها إلا في أوقات الإجازات، أما أيام الدرس فهي للدرس، فهو يعرف أنه إذا أراد أن يدرس الموسيقى، فعليه أولاً أن ينال

شهادته الثانوية لكي يتمكن من الالتحاق بالمعهد الموسيقي حيث يتخصص في فن الموسيقى... كان هدير محرك السيارة الرتيب يبعث على النُّعاس، لذلك شعر فارس بعينيه تُغمضان رغماً عنه، لكن زخَّاتٍ خفيفة من المطر التي أخذت تطرق سقف السيارة أيقظته.. نظر من النافذة.. شاهد الغيومَ السوداء تُغطي السماء، كان المطر والظلام يحجبان الرؤية في الخارج، وسأل فارس أخته وهو يتململ:

– علياء.. هل تعتقدين بأن المطر سيزداد؟

– لا أدري.. لكن يبدو لي أن الجو لن يميل إلى الصحو... على كل حال نحن في فصل الشتاء ومن الطبيعي أن يسقط المطر وخاصة على الجبال المرتفعة حيث نحن الآن.

أخذ المطر يزداد وأصبح انهاره أشد عنفاً وغزارة، وأصبحت طَرقاته على سقف السيارة مزعجة.. الركاب استووا في مقاعدهم بانتباه وقد أخذ القلق يُساوِرُهم.. تُرى هل سينهمرُ الثلج ويسدُّ

الطرقات..

كان من المألوف، وفي أيام الشتاء، أن يسد الثلج طريق بيروت – دمشق وخاصة في الليل. وطالما سمعوا عن العواصف التي تهب في هذه المنطقة فتقطع الطرقات بثلجها وتمنع السيارات من مواصلة سيرها مما يضطرها للبقاء يوماً كاملاً مسمّرة في مكانها بانتظار قدوم الجرافات لتشق الطريق..

لم يَطُلْ تساؤلُ الركاب كثيراً، فقد بدأوا يسمعون طرْقاً حادًّا متواصلاً يصمُّ الآذان.. إنه الثلج.. لا بد أن عاصفةً ستهب، وبدأت تُسمع «همهمة» صادرة من الركاب الذين بدأوا يتساءلون في قلق، وصاح واحد منهم مخاطباً السائق:

– ألا يمكنك أن تسرع أكثر حتى نصلَ إلى دمشقَ قبل أن يسدَّ الثلجُ الطرقات؟

وقال السائق:

– أرجو من الجميع أن يَبْقوا هادئين.. السرعة لن تفيدَنا. فالضباب يحجب الرؤْية وأنا مضطرٌ للسير

بهدوء محافظةً على أرواح الجميع..

– ولكن إذا اضطررنا فسوف نبقى هنا طَوال الليل..

– أرجو ألا يحدث لنا هذا الأمر، وأرجو من الجميع أن يضبطوا أعصابهم ويتحملوا بعض المتاعب وأن يبعدوا القلق! مهما حدث لن أخاطر بأرواح الركاب، والسيارةُ حديثةٌ ومجهزة بالتدفئة، فلا مجال للخوف..

جلس الراكب في مكانه وهو يشير بيديه بحركات عصبية وكأنه غيرُ مقتنع بما قاله السائق وقال فارس لأخته:

– أنا أوافق على رأي هذا الرجل.. إذا أسرعنا سنسبق الثلوج ونتخلص من هذا المأزق....

– كلا.. الطريق مليئة بالثلوج كما ترى، والسرعة تُعرضنا للانزلاق.. ومهما أسرعنا، فمن يضمن لنا بأننا سنصل قبل أن تسد الثلوج الطرقات.. السائق قديم وخبير في مهنته.. فاطمئن يا عزيزي واجلس في



مكانك هادئاً.. لا داعي للخوف..

واصلت السيارة طريقها ببطء، بينما أخذت الثلوج تتراكم على الطريق واشتد هبوب العاصفة، وما هي إلا دقائق، حتى اصبح من العسير مواصلةُ السير، إذ أخذت عجلات السيارة تنزلق فوق الثلوج حتى كادت تمنع السائق من السيطرة عليها، عندئذٍ بذل جهداً كبيراً حتى استطاع أن يخفف من سرعتها ثم يجعلها تقف تماماً.

– أطفأ السائق المحركات وعمَّ الوجوم، ولم يُسمع إلا صوتُ طَرْقِ حبات الثلج على أطراف السيارة، ثم قال مخاطباً الركاب:

– أيها السادة، يؤسفني أن أعلمكم أنه أصبح من المتعذِّر علينا مواصلةُ التقدم.. لكن أرجوكم، لا يوجد أي سبب للقلق أو الخوف.. ربما توقفت العاصفة بعد قليل فنستأنف السير، أما إذا لم يحدث ذلك، فسنضطر للبقاء هنا إلى أن يبزغ النهار.. كما قلت لكم.. السيارة مجهّزة بالتدفئة كما تلاحظون، وهي

تستمد حرارتها من سخونة المحرك..

لقد أوقفت المحركات الآن لأن السيارة دافئة، وعندما نشعر بالبرد سأديرها من جديد لبعث الحرارة في أجهزة التدفئة.

وصاح راكب:

- إذا بقينا هنا حتى الصباح فمن الذي سينقذنا من هذا المأزق؟

- ستأتي الجرافات في الصباح وتفتح الطرقات.. وعندئذ يمكننا مواصلةُ السير.. هذا يحدث عادةً ونحن معتادون على هذه الأمور.

وقال آخر:

- ولنفرض أن العاصفة لم تتوقف عند الصباح.. فهل سنظل محجوزين هنا؟

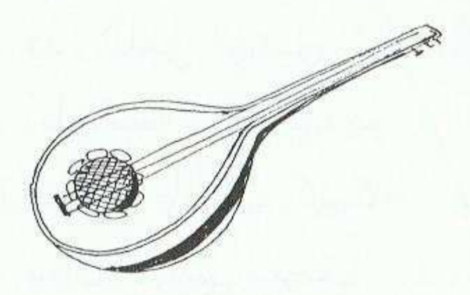
- مهما حدث، فإن الحكومة ستباشر عملها في الصباح وتنقذنا.. فكن مطمئناً..

وجلس السائق في مقعده يفكر... بينما ساد الصمت.. كان جوٌّ من القلق يسود الجميع، فالكثير

منهم لم يكن متعوداً على مثل هذا الوضع، وازداد القلق والتوتر عندما ازدادت كثافة الثلوج المتساقطة وبدأت تحيط بجوانب السيارة وترتفع، وخلال عدة دقائق، ارتفعت لتصل إلى مستوى قريب من النوافذ الزجاجية، وبعد ذلك اشتد الضباب حتى لم تعد الرؤية ممكنة إلا لأمتار قريبة وأصبح جوف السيارة وكأنه سجنٌ مضيء...

مضت ربع ساعة والجميع في سكون، كان جوُّ الكآبة ظاهراً. وبدأت إحدى النساء تبكي بينما ارتفع صراخ طفل وتوتر الجو المشحون بالقلق وقال فارس:

- يا له من جوٍّ خانق.. أشعر أن شيئاً ما سيحدث.. فالركاب لن يبقوا هادئين في هذا الجو المتوتر...



٢ - اطمئنانٌ بعد قلق

فجأةً.. تصاعدت من مؤخرة السيارة نغمةٌ هادئة من قيثارة.. كان ثمة شاب يجلس في المقعد الأخير وقد حمل قيثارة أخذ يعزف عليها بهدوء.. كان الصوت المنساب منها أشبه بنسمة منعشة في يوم حارّ.

سكتت المرأة التي كانت تبكي، وتوقف الطفل عن الصراخ وتسللت النغمات الهادئة إلى الآذان لتزيح القلق وتطرد التوتر المشحون، وأدار الجميع رؤوسهم ليتبينوا مصدر هذا اللحن الجميل.. وقليلاً قليلاً عاد كل شيء إلى طبيعته، وساد جو من الارتياح وانصرف الركاب إلى أحاديثهم كما كانوا يفعلون قبل توقف السيارة، وقال فارس بتعجب:

- يبدو أن الموسيقى فعلت فعلها.. هل لاحظتِ يا علياء كيف زال التوتر وعاد الهدوء إلى الركاب بعد أن بدأ الشاب بعَزْفه؟

- ليته فعل ذلك قبل أن يتطور الأمر إلى هذا الحد، فإن أفضل ما يمكننا فعله الآن هو الاستماع إلى هذه الألحان...

وواصل الشاب عزفه ثم بدأ يغني أغنية معروفة، وشيئاً فشيئاً أخذ بعض الركاب يشاركه الغناء وكأنهم نسوا ما هم فيه، وعلتِ الأصوات، ثم بدأ البعض يصفّقون على ألحان أغنيةٍ شعبية سريعة الإيقاع، واندمج الجميع، بعضهم يصفق وبعضهم يُنشد.

وساد جوٌّ من البهجة داخل السيارة وكأنه عرس، وبقي الأمر كذلك إلى أن شعر بعضهم بالنعاس وبدأت الضجةُ تخف شيئاً فشيئاً إلى أن توقف الشاب عن العزف وساد الهدوء من جديد، وشعر الجميع بالاطمئنان، فجلسوا يستمعون إلى صوت المطر والثلج من غير مبالاة.. وقال فارس لأخته:

- إنه يعزف عزفاً بارعاً.. ألم تلاحظي؟ ليتني أُحسن العزف مثلَه

- ربما كان عازفاً محترفاً.. فبالرغم من أني أجهل الموسيقى إلا أني أعتقد أنه يمارس عمله بإتقان..

- سأتعرف إليه وأجلس بجانبه.. ربما تعلمت شيئاً من فنه الموسيقي.



٣ - حديثٌ شيق عن الموسيقى

قام فارس من مكانه وتوجه إلى حيث يجلس الشاب فحيّاه وجلس بجانبه وقال:

- أنت تعزف عزفاً جيداً.. ليتني كنت موهوباً مثلَك..

وضحك الشاب وقال:

- أهلاً بك يا فتى - هل تحب الموسيقى؟

- إنها هوايتي المفضلة وأتمنى لو أعكف على تعلُّم فنونها وأساليبها ولكنني مضطرٌ أن أنتظر حتى أنال شهادتي الثانوية وبعدها أنصرف للتخصص في هذا الفن الذي أحبه حبًّا كثيراً.

هذا ما يقوله والدي..

– والدك على حق.. يجب أن تنالَ قسطاً من الثقافة العامة قبل أن تنصرف إلى هذا الفن.. الثقافة ضرورية لكل فنان..

– قل لي هل أنت عازفٌ محترف.. لا يبدو لي عزفُك عزفَ هواة.. فأنا ما زلت أعزف بطريقة سيئة جدًّا..

– ليس من الضروري أن يكون عزفك جيداً منذ البدء.. المهم أن تحب الموسيقى، هذا هو الشرط الأول لكل عازف.. العزف الجيد والتمرس يأتيان بعد ذلك.. بعد التمرين والدراسة.

– لم تجبني على سؤالي.. هل أنت عازف محترف؟.. هل اتخذت العزف مهنة تعيش من إيرادها؟

ابتسم الشاب وشرد قليلاً؟ ثم قال:

– في الواقع هذا هو هدفي: أن أكون عازفاً لامعاً وأن أعمل في هذا الفن لأكسب قوتي.. لكن في الحقيقة لست سوى طالبٍ في المعهد الموسيقي.. قال فارس بحماسة:

– يا للصدفة الجميلة. إذن أنا وأنت لدينا شيء مشترك.. لا بد أنك ستصبح موسيقيًّا بعد تخرجك.. أنا متأكد من ذلك..

– وكيف عرفت؟

– لأنك تحسن العزف وتتقنه...

– إن اتقان العزف لا يكفي.. بالمناسبة ما اسمك؟

– اسمي فارس..

– وأنا اسمي زياد.. اسمع يا فارس.. العزف الجيد لا يكفي وحده لكي يصبح صاحبه موسيقيًّا معروفاً، فالموسيقى مجال واسع وعميق ولا ينجح فيه إلا الإنسان الموهوب، فالموسيقى موهبة فنيّة يهبها الله للإنسان، والموهبة لا يمكن تعلُّمُها أو اكتسابها..

– إذن لماذا يدخل الناس إلى المعاهد الموسيقية؟

– لأن الموهبة لا تكفي، ولأن الدرس والتمرين يصقلان تلك الموهبة ويهذّبانها ويؤهّلانها للظهور بالشكل المناسب، مثَلُها مثلُ كل الفنون..

– ولكن هل يمكن أن نقول إن الموسيقى علمٌ قائمٌ بذاته.. أيْ أنها شيءٌ يعتمد على حسابات معينة وأرقام محددة مثل أي مادة علمية أخرى؟

– لا يمكن وصف الأمر بهذا الشكل.. الموسيقى تعتمد على السمع وطريقة استعمال الأصابع أثناء العزف، لكنها في الوقت نفسه علمٌ له أرقام وحسابات وهي التي تمكِّن من تدوين الموسيقى على الورق..

– تعني « النوته » الموسيقية؟

– نعم.. مثلاً إذا أردت أن تحتفظ بما يخطر ببالك تكتبه على الورق بالأحرف والإشارات، وهكذا يكون في وسعك أن تراجع وتتذكر ما فكَّرت فيه عندما تقرأ ما دونت وبالطريقة نفسها، أما إذا أردت أن تحتفظ بلحن حتى يمكنك تذكُّره في أيِّ وقت، فإنك تدونه بشكل نوته موسيقية.. بعضُ الموسيقيين العباقرة وضعوا ألحانهم الموسيقية فور خطورها في أذهانهم ودونوها على شكل نوته موسيقية

من غير أن يستمعوا إليها.. « بيتهوفن » الموسيقيّ المشهور، كان أصمّ لا يمكنه الاستماع إلى الموسيقى التي كان يدوِّن نوتتها.. أليس هذا عجيباً؟

– حقًّا.. إن الفن هو أعظم وأعجب موهبة وهبها الله للإنسان.. هل كان « باخ » و « موزارت » يكتبان نوتة الموسيقى أيضاً قبل الاستماع إليها؟

وضحك زياد طويلاً ثم قال:

– هذا سؤال لا يمكنني الإجابة عليه.. لأني لم أعرفهما ولم أعاصرهما.. ولكن يبدو لي أنك تحفظ أسماء بعض عظماء الموسيقى...

– هذه أسماء معروفة نسمع بها كثيراً....

– نعم هذا صحيح.. لكننا للأسف الشديد، لا نسمع كثيراً بأسماء عربية مثل « زرياب »، وإسحق المَوْصِلي، والفارابي (الذي كان موسيقيًّا كبيراً إلى جانب علمه الغزير الذي عُرف به..).

٤ – من تاريخ الموسيقى العربية

ونظر فارس بتعجب إلى زياد وقال:

– الفارابي.. أعرف أن هذا الرجل كان فيلسوفاً...

– وكان عالماً موسيقيًّا.. فهو الذي صمم الآلة الموسيقية التي تسمى الآن «القانون» تلك الآلة التي عدّلها الغربيون فيما بعد فصنعوا منها «البيانو».

الحقيقة إن الألحان العربية التي نسمعها اليوم، لا تمت إلا بصلة ضئيلة إلى الألحان العربية الأصيلة التي كانت سائدة في أوْج ازدهار الحضارة العربية، فهي مطعمة في أغلبها بالألحان التُّركية التي ورثناها عن العهد العثماني الذي دام في بلادنا أربعمئة عام، ولذلك

فإنك تجد بعض الناس يشكون من رتابة هذه الألحان، كما تجد بعضَهم الآخر يحبونها ويعجبون بها إعجاباً شديداً. أما الألحان الشعبية القديمة جدًّا فإن الجميع يحبونها ويترنمون بها وإن لها طابَعاً خاصًّا يجعل لها شخصية محببة لدى جميع الناس، وهي تختلف عن الألحان العربية الحديثة، ربما لأنها تحتوي على الطابع العربي الأصيل أكثر من غيرها.

ويمكننا القول إن الألحان الشعبية القديمة التي نجدها في شبه الجزيرة العربية واليمن هي أقرب الألحان إلى ألحاننا الأصيلة.. كذلك الموشّحات.. مَن الذي لا يحب الموشحات الأندلسية؟ أليست جميلة ورائعة.. ثم أليست مختلفة اختلافاً كليًّا عن الألحان التي نسمعها الآن كل يوم.. وما نذكره في تلك الموشحات الأندلسية في يومنا هذا ليس إلاَّ القليل من الذي كان موجوداً قبل انهيار الأندلس.

– أنا شخصيًّا أحب الموشحات الأندلسية وأجدها خفيفةً ومحببة..

– عن طريق الأندلس أخذ الأوروبيون أغلب آلاتهم الموسيقية، فالأندلس كما تعلم كانت في إسبانيا، وبعد رحيل العرب عن إسبانيا الأوروبية بقيت آثارهم، ومنها بعض الآلات الموسيقية مثل الرَّبابة والنّاي الصغير، والناي الخشبي ذي المبسم، والنفير، والبوق والطبل والطبلة والصنوج أي «الدف» والنقارة وغيرها، وهذه كلها آلات نجدها الآن في أية فرقة أوركسترا غربية، ولكن طبعاً بعد أن عدَّلوا فيها قليلاً وغيروا أسماءها..

وساد الصمت قليلاً بين الصديقين قال زياد بعدَها:

– ألم يغلبك النعاس.. أرى أن أغلب الركاب قد ناموا..

– الفضل في ذلك لألحانك، فقد كان وَقعُها سحريًّا على أعصابهم فهدأ بالهم بعد التوتر والخوف.. هل نعست أنت أيضاً..

– كلا.. إني أفضل مواصلة الحديث معك.. لا

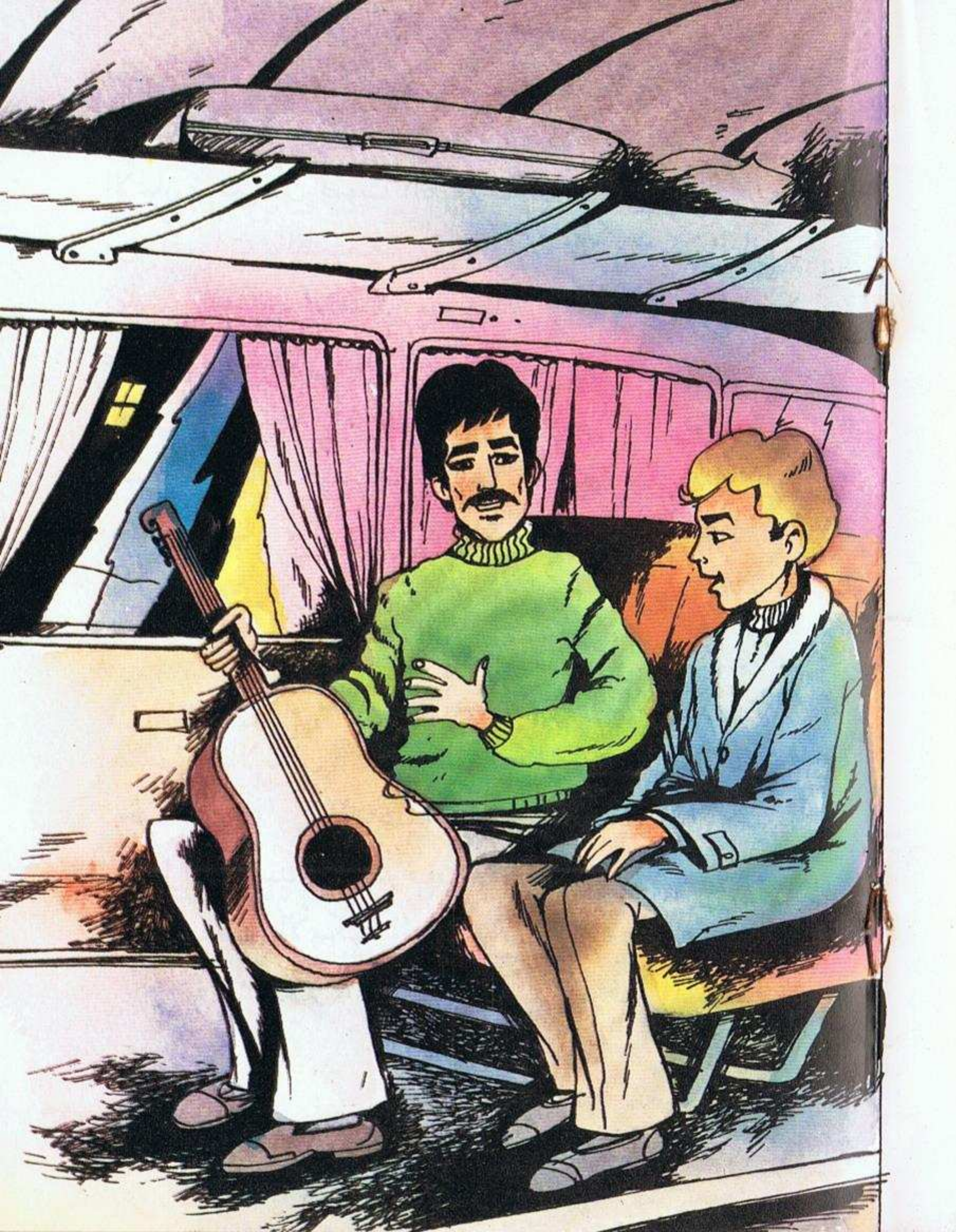
أشعر بالرغبة في النوم..

– هل تعتقد حقًّا أنه سيأتي من ينقذنا صباحاً؟ سيارتنا أصبحت مغمورةً بالثلوج.. كيف سيعرفون أننا هنا؟

– وهل تعتقد أننا الوحيدون الذين علقنا.. توجد العشرات من السيارات متوقفة في الطريق.. مثلنا.. نحن في طريق عام والسلطات المختصة تعرف أنه في هذه العاصفة ستضطر السيارات للتوقف وستغمرها الثلوج، ولذلك سيرسلون في الصباح الجرافات لإزاحة الثلج وتخليص السيارات المتوقفة..

في العام الماضي اضطروا لاستعمال الطائرات المروحيّة لإنقاذ الركاب.. ولذلك كُنْ مطمئنًّا.. في الصباح سيتمُّ إنقاذنا مهما كان الأمر..





٥ - الآلات الموسيقية

- ما دام الأمر كذلك لنواصل حديثنا.. ما هي أقدم آلة موسيقية في العالم؟ وهل عرف الإنسان الموسيقى منذ وقت طويل؟

- الموسيقى والرسم هما فنان من أقدم الفنون في العالم، بل إن فن الموسيقى هو أقدم هذه الفنون جميعاً، لأن الموسيقى موجودةٌ في الطبيعة قبل أن يمارسها الإنسان، فمنذ أن وجد الإنسان على وجه الأرض، وجدت معه الموسيقى، فقد كان يسمعها عندما تغرِّد العصافير، وكان يسمعها عندما تُبرق السماء وتُرعد، وكان يسمعها في هدير الشلالات وخرير الأنهر وحفيف الأغصان، هل تعلم أنه لا تزال في

بعض أنحاء العالم قبائل بدائية لديها آلات موسيقية بدائية غريبة، تُصدر أصواتاً مثل أصوات خرير الأنهار، حتى أن صوت الطبل ما هو إلا تقليد لصوت من أصوات الطبيعة، أي صوت الرعد، والناي تقليد لصفير العصافير، ولذلك تجد الطبل والناي عند كل القبائل البدائية الموجودة إلى الآن، طبعاً الطبل قد يتخذ أشكالاً عديدة، فهو قد يكون في بعض الأحيان مجرد جذع شجرة أجوف يُطرق عليه بعصا غليظة، والناي قد لا يكون سوى قصبة مجوَّفة صافرة.

ونستطيع أن نقول إن الطبل هو أول آلة موسيقية استعملها الإنسان، فقد كان يكفي أن يأتي بجذع شجرة أجوف ويطرق عليه بعصا، وكان يستعمل هذا الطبل لإصدار الطَّرقات الإيقاعية للرَّقص أو للتخاطب من الأمكنة البعيدة..

- هذا يعني أن الإنسان لم يعرف الموسيقى

الحقيقية إلا بعد اختراع الآلات الأخرى التي تُصدر أنغاماً...

- بالعكس.. لا تزال توجد قبائل بدائية في إفريقيا يمكنها أن تعزف ألحاناً جميلة حماسية باستعمالها بعض الآلات الغريبة البدائية، كثمار بعض النباتات الجافة التي تحتوي على بذور وجذوع الأشجار الفارغة التي يشدون فوقها جلد السمك المجفف، ولديهم آلةٌ مصنوعة من قطع عديدة من القصب الجاف تُصدر أصواتاً تشبه أصوات البيانو، ويمكنهم الحصول على صوت يشبه صوت فحيح الأفاعي بحكِّ قطعتين من الخشب، لهما سطح خشن، إحداهما على الأخرى.

- هذا عجيب.. كيف يمكن لهذه الآلات البدائية أن تُصدر أنغاماً عذبةً يمكن الاستماع إليها.. هذا أمر غير معقول..

- هذا معقول جدًّا.. وقد شاهدت ذلك بنفسي!!

- كيف.. هل كنت في إفريقيا؟

- نعم.. منذ عامين كنت في زيارة لشقيقتي التي

تقْطِن مع زوجها في بلد إفريـقي، وكانا يسكنان في بيت في ضاحية المدينة، وفي يوم من الأيام شاهدتُ زِفافاً أقامه بعض القرويين الذين يقطنون في كوخ قريب، وقد أحببت أن أشاهدَ هذا الزفاف على سبيل الفضول، وقد ضحكت في سرّي عندما شاهدت العازفين يمسكون آلاتهم البدائية هذه، وتوقعت أن أسمع أصواتاً « ناشزة » أثناء عزفهم، ولكن عندما بدأ العزف لم أصدق ما أسمع.

كانت تلك الفرقة في الواقع فرقةً موسيقية بدائية.. لقد عزفوا ألحاناً حماسية جميلة جدًّا، كما لو كانت فرقة أوركسترا كاملة تقوم بهذا العزف، وصدِّقني إذا قلت لك إني اندمجت في هذه الموسيقى وكدت أرقص مع الراقصين بعد أن أخذتني الحماسة!

٦ - أهمية الموسيقى في عصرنا

وقهقه فارس بالضحك طويلاً وقال:

- لا تقل لي إنك وضعت الريش فوق رأسك أيضاً..

وضحك زياد قائلاً:

- كلا.. لم أصل إلى هذا الحد..

- يبدو أن الموسيقى تفعل الأعاجيب في نفس الإنسان..

- هذا صحيح. فالموسيقى يمكنها أن تجعلك تهدأ وتسترخي، وقد تجعلك متحمساً متوتر الأعصاب، وقد تجعلك لا تتمالك نفسك فتُقْدِمُ على الرقص كما كاد

يحدث معي..

في القرن الثامن عشر، كانت الفرق الموسيقية عماد الجيوش، فهي التي كانت تتقدم الفرق العسكرية تعزف ألحانها الحماسية لتشجيع الجنود على القتال، كذلك كان يجري التجذيف في المراكب وإطلاق المدافع على قرع الطبول، حتى أن العلماء اكتشفوا أن الموسيقى الهادئة إذا وضعت في «مزارب» الأبقار، جعلتها تدر كمية أكبر من الحليب، والموسيقى دائماً تصاحب الأفلام والمسرحيات لمضاعفة التأثير في النفس، هل شاهدت مرة فيلماً سينمائيًّا من غير موسيقى تصويرية، لو حدث ذلك لما كان اقتناعُك وتأثرك بالفيلم عميقاً، لكن الموسيقى التصويرية التي تصاحب مشاهد العنف والحروب أو اللحظات الشاعرية تجعلك تندمج في المشهد وتعيش فيه..

إن الموسيقى جزءٌ لا يتجزأ من حياة الإنسان، وهي دوماً تصاحب عواطفه فتضاعفها أو تخفف من تأثيرها.. هل تساءلت مرة لماذا تكون تلاوة القرآن

الكريم تجويداً وترتيلاً وليست قراءة عادية كما نقرأ الكتب والصحف، ولماذا يجري إنشاد الأناشيد الدينية في المعابد على أنغام «الأورغن»؟ لأن الموسيقى تجعل المصلين هناك يحسّون بالإيمان إحساساً أعمق حتى الحيوانات التي تعيش في الطبيعة تفهم الموسيقى وتستعملها كأداة للتخاطب، لماذا يصفر البلبل أو يغرِّد الكنار مثلاً؟ إنه يفعل ذلك لينادي البلابل والكنارات الأخرى..

وصمت فارس قليلاً ثم قال:

- فعلاً، إن الموسيقى عنصرٌ أساسي في حياة الطبيعة وحياة الإنسان وأتمنى أن تقوم في بلادنا نهضةٌ موسيقيّة مزدهرة ومتطورة..

- وأنا أتمنى ذلك، لكن النهوض بالموسيقى يتطلب عملاً صعباً وطويلاً... ففي البلاد الأوروبية فرقٌ موسيقية تضم أفضل العازفين، ويقودها أشهر الموسيقيين، وتشرف عليها الدولة، وتكون مهمتها الوحيدة تحسين الموسيقى وعزف

المقطوعات الموسيقية المشهورة، ليستمع إليها الناس في الساحات العامة أو في دور الأوبرا..

- وما هي دار الاوبرا؟

- دار الأوبرا في أوروبا تابعة أيضاً للدولة، وهي مسرح واسع يتسع لعدد كبير من الناس يقدر بالآلاف. وأغلب دور الأوبرا في أوروبا قديمة ومبنية على الطراز القديم، فقد كان ملوك أوروبا فيما مضى يبنون تلك المسارح ويهتمون بزخرفتها لتصبح بأبهى حُلّة. فدارا الأوبرا في انكلترا وفرنسا تعتبران أعجوبة في فن البناء، لما تحتويه كل منهما من زخارف نادرة، وهذا أفضل دليل على اهتمام الناس في تلك البلاد بالموسيقى، وما زالت الحفلات الموسيقية تقام فيها حتى اليوم كما تعزف «الأوبريت» أو «المغناة» والناس يقدمون على حضورها في حماسة شديدة...

لقد تأخرنا في عالم الموسيقى بعد أن حققت الموسيقى العربية ازدهاراً وتقدماً كبيرين في عصور الحضارة العربية...

ما هي الأوبريت أو المغناة؟

- الأوبريت هي مسرحية يقوم الممثلون بأدائها عن طريق الغناء، وهذا دليل آخر على مدى تأثر الناس بالموسيقى، ففي الماضي كانوا يحورون المسرحيات للتمكن من أدائها بطريقة الغناء، فقد كان ذلك أكثر نفاذاً وتغلغلاً إلى قلوب الناس، وكان أشهر الموسيقيين هم الذين يقومون بتلحين هذه المسرحيات..

- أنا لم أشاهد أي مغناة في حياتي، ولا يمكن أن أفهمها أو أكوّن أية فكرة عنها..

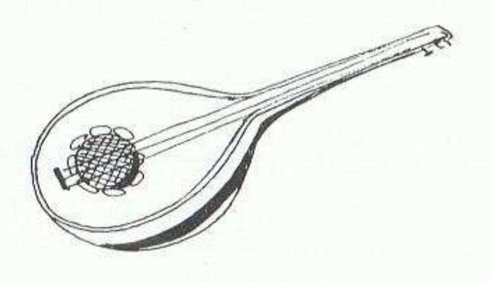
- إنها شيء يشبه مسرحيات المطربة فيروز الغنائية.. ونحن في الحقيقة لم نعرف في تاريخنا هذا النوع من الفنون الموسيقية بل كانت لدينا فنون موسيقية وغنائية مختلفة نجهل الكثير عنها بعد غزو المغول لبغداد وانهيار دولة الأندلس واكتساح المستعمرين لبلادنا..

بقيت لدينا فقط بعض الآثار القليلة، مثل

رقصات « السماح » التي تقوم بها الفتيات، والموشحات الأندلسية، والمواويل الشعبية، ورقصات الدبكة اللبنانية، والعرضة السعودية ...

هناك حكايات كثيرة تدل على اهتمام أجدادنا الكبير بالموسيقى والموسيقيين. هل تحب أن أسرد لك إحداها؟

– إني متشوق لذلك..



٧ – مع زرياب البغدادي

– هناك حكاية عن الموسيقيِّ العربي الكبير « زرياب » لقد عاش هذا الرجل في مدينة بغداد وفي أيام خلافة « هارون الرشيد » وكان تلميذاً للموسيقي والمغني المعروف حينها « إسحق بن إبراهيم المَوْصِلِي »، الذي تبناه هارون الرشيد وجعله مطرب البلاط، وفي أحد الأيام خطر ببال إسحق أن يقدم تلميذه زرياب إلى الخليفة لينال تقديره ورضاه، وعندما دخل زرياب إلى الخليفة سأله ماذا يمكنه أن يغني فقال:

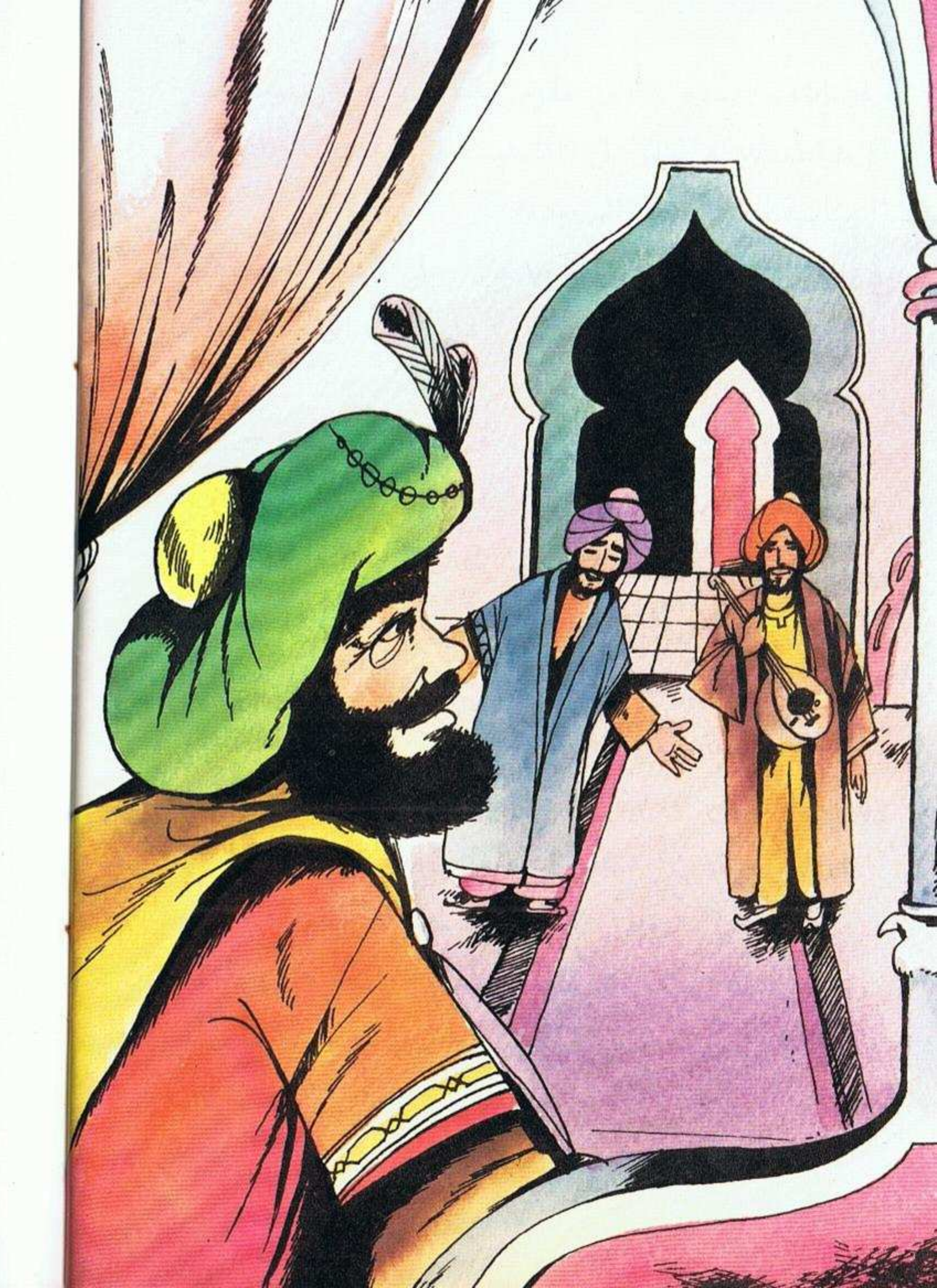
– إنني أستطيع الغناء تماماً كما يستطيعه الآخرون، لكني أستطيع شيئاً لا يقدر عليه غيري، فإن أذنتَ لي غنّيت أمامكم ما لم يغنه أحدٌ من قبلي..

وهنا ناوله أستاذُه إسحق عودَه ليعزف عليه، لكن زرياب رفض العزف على هذا العود وقال للخليفة:

- إن شاء مولاي سماع أغنية من أغنيات أستاذي إسحق، سأعزف على عوده، وإن شاء مولاي معرفة نوع الغناء الذي ابتكرته، فيجب أن أعزف على عودي الذي صنعته بيدي.. وبإذنٍ من هارون الرشيد عزف زرياب على عوده الخاص وغنى قصيدة وضعها هو في مدح الخليفة..

وطَرِبَ الخليفة من غناء زرياب كثيراً، ومنحه مبلغاً كبيراً من المال، لكن الأمور لم تجرِ على ما يرام بعد ذلك، فقد شعر إسحق المَوْصِلي بالإهانة لأن زرياب رفض العزف على عوده، واعتبر أن ذلك استصغاراً لشأنه، فأنَّبه على ذلك وطلب إليه ألاّ يعود مرة أخرى إلى قصر الخليفة، ثم أعطاه مبلغاً من المال وطلب إليه الرحيل من بغداد.

شعر زرياب أن بقاءه في بغداد لم يعد يفيده بل ربما أضرّ به، فقد كان إسحق ذا سطوة ونفوذ بسبب



مكانته عند الخليفة، وكان في وسعه أن يقضي على مستقبل زرياب بسبب تصرفه، ولذلك عندما سأله الخليفة عن زرياب مرة أخرى قال له:

- إن زرياب مسكينٌ قد أصيب بمسّ من الجنون، فعندما ينتابه الجنون يدّعي بأنه لا مثيل له في العالم، وقد رحل لأن مولاي لم يعطه ما يناسبه من الأجر...

وقد أدرك زرياب أنه لم يعد بإمكانه التقرب من الخليفة، وفي تلك الأيام كان الخليفة هو الذي يتبنى الفنانين والعلماء ويدفع لهم أجورهم ويهيىء لهم السُبل لممارسة عملهم وتحسينه، كما تفعل الدول الآن..

ولذلك كان عدم الدخول إلى بلاط الخليفة بمثابة القضاء على مستقبل زرياب قضاءً تامًّا. سافر زرياب إلى الأندلس، ووصل إلى قرطبة، ويبدو أن أمير الأندلس كان قد سمع به، ولذلك أرسل في طلبه على الفور، واستقبله أحسن استقبال وعرض عليه راتباً شهريًّا كبيراً..

وهكذا كان: لقد أصبح زرياب مغنيَ الأمير الخاص وأصبح ذا حظوة عنده، فكان الناس يلجأون إليه بأمانيهم ليوصلها إلى أُذن الأمير الذي بالغ في إكرامه وأنشأ له مدرسة للموسيقى ليعلِّم فيها أصول الموسيقى والغناء..

- إنها حكاية تشبه حكايات ألف ليلة وليلة..

- لكنها واقعة حقيقيّة ومدونة في كتب التاريخ العربي، وهي تعطينا فكرة عما كان يتمتع به الموسيقي العربي في ذلك الوقت، فهو كان أفضلَ حالاً مما هو عليه الآن..



٨ - النجاة من العاصفة

وصمت الاثنان فترة وفجأة قال فارس:

- هل لاحظت؟!.. إن الثلج قد توقف عن السقوط، فلم أعد أسمع صوتَ طرقات المطر على سقف السيارة!

- هذا فألٌ حسن. يبدو أن العاصفة قد هدأت وبدأت أشعر بالنعاس.. هل ما زلت راغباً في السهر؟

- أظن أن هذا يكفي.. أنا أشعر بالنعاس أيضاً.. سأعود إلى مقعدي لأنام بانتظار أن يبزغ النهار.. أمسيت بخير..

- وأنت أيضاً تصبح على خير يا فارس وإلى اللقاء صباحاً..

وعاد فارس إلى مقعده بجانب أخته التي كانت تغطُّ في النوم، وما هي إلا لحظات حتى راح الآخر في سُباتٍ عميق...

طلع الصباح وعادت الشمس للظهور ناشرةً أشعتها فوق بساط الثلج الأبيض الذي كان يغطي كلَّ شيء، حتى أن السيارات المطمورة على جنبات الطريق اختفت تماماً عن الأنظار وكأنها غير موجودة، أزيز الطائرة المروحية وحده كان يقلق السكون، ها هي الطائرة تدور وتدور، وعينا قائدها الخبيرتان تحددان مواقع السيارات المطمورة..

فتح فارس عينيْه وأخذ يفركها، ظن نفسه في الفراش، وتعجب أول الأمر، عندما نظر حوله.. لكن صوت الطائرة المتردد أعاده إلى واقع الحال..

فجأة تذكر كل شيء.. حاول أن ينظر من النافذة، لكن الثلوج كانت تغطيها. وقال في نفسه: «إذن العاصفة استمرت طوال الليل.. وها هم يبحثون عنا بالطائرات المروحية».. ونظر إلى أخته

وقال لها:

- صباح الخير.. أرجو أن لا تكوني تَعِبَةً يا شقيقتي..

- صباح الخير يا فارس.. هل بدأوا بفتح الطريق أم بعد؟

- أعتقد أنهم الآن يبحثون عن السيارات المتوقفة بواسطة الطائرات.

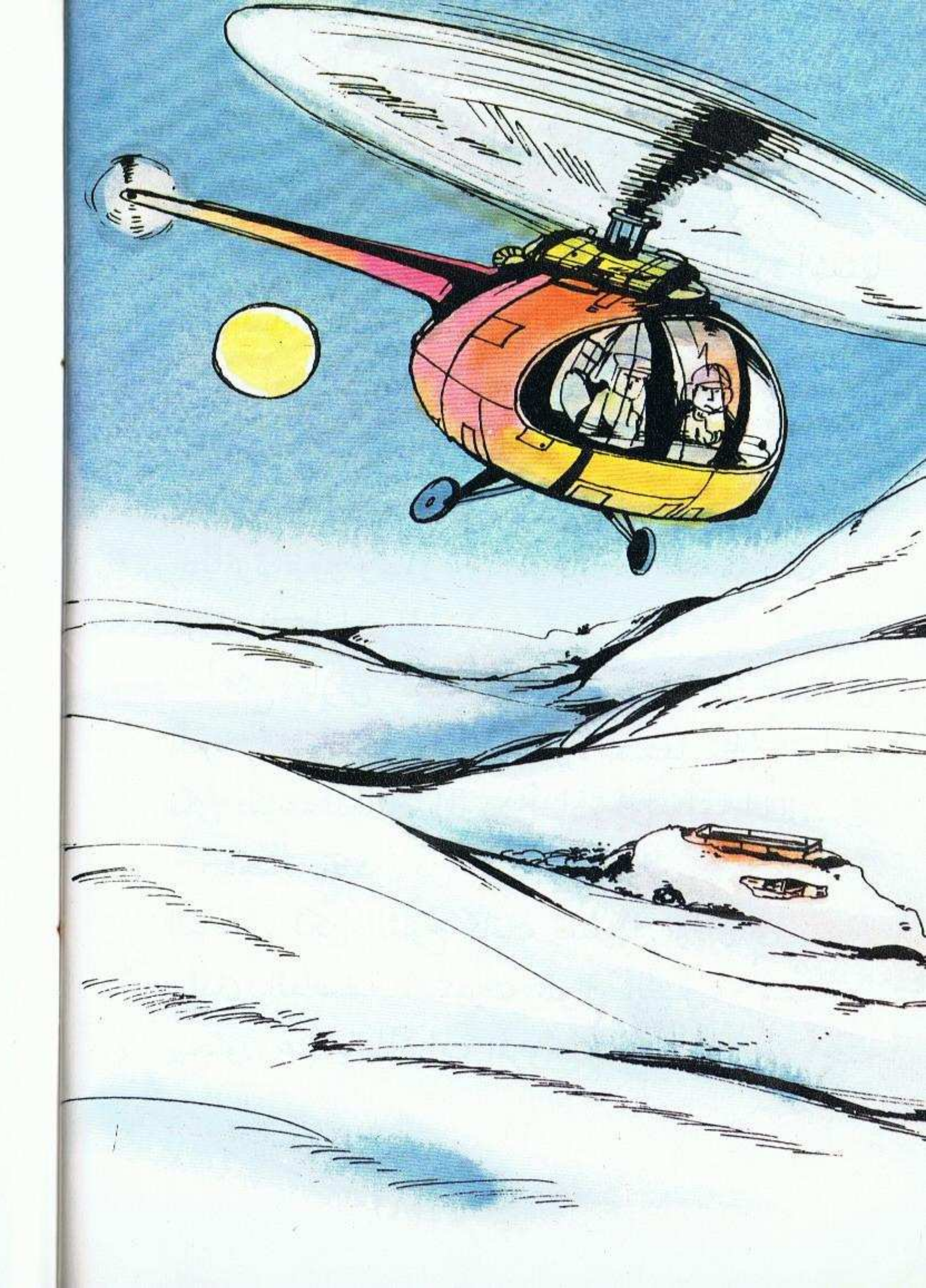
هل تسمعين صوتها؟

وأصغت علياء السمع قليلاً، ثم قالت:

- نعم.. إني أسمعها.. يبدو أن الثلوجَ كثيفةٌ جداً حتى اضطرت السلطات للاستعانة بالطائرات المروحية.. وإلا كانوا فتحوا الطرقات من غير تكلف عناء البحث عن كل سيارة بمفردها.. ما علينا الآن سوى الانتظار.. لن يطول الأمر أكثر من ساعة وبعدها نكون في دمشق..

وساد الصمت قليلاً ثم قالت علياء:

- هل أطلت السهر ليلة أمس مع الشاب



الموسيقي..

- نعم.. وكان بيننا حديث طويل عن الموسيقى.. إنه طالب في المعهد الموسيقي وعلى وشك التخرّج.. لقد شجعني أكثر على التخصص بهذا الفن الذي أحبه ومنذ الآن سأهتم بها أكثر فأكثر.. لقد خطر لي أن أؤلف فرقةً موسيقية للمدرسة وسأحدّث المدير بهذا الشأن.

- لا أعتقد أن المدير سيوافق على أمرٍ كهذا.. فهذا سيشغلكم عن دروسكم..

- إلا إذا أقنعته بأننا سنتدرب في أيام العطل فقط..

- ومن الذي سيشترك معك في هذه الفرقة الموسيقية؟

- أنتِ تعرفين صديقي نبيل وصديقي عمر.. سنكوِّنُ معاً نواة الفرقة ولا بأس إذا انضم إلينا آخرون من هواة الموسيقى..

وضحكت علياء وهي تقول:

- يا لها من فرقة.. بودي أن أراكم وأنتم تعزفون..

وضحك فارس وقال:

- تقصدين بودّك لو ترين الناس وهم يهربون أثناء عزفنا..

- سيكون منظراً مسلياً..

لكني واثق من أن المدير سيوافق.. أتعرفين لماذا.. لقد حضرتِ أنت حفلة نهاية السنة المدرسية الماضية وشاهدت كم كانت كئيبة.. وأعتقد أن المدير سيرحب بأية فكرة تنقذ حفلاته من الرتابة..

وضحك فارس طويلاً وهو يقول:

-.. حتى ولو على حساب سمع الحاضرين..

وضحك الأخوان كثيراً وأخذا يتبادلان النكات..

ولم يمض وقت طويل حتى بدأت تُسمع أصوات الجرافات وهي تقترب مكتسحة الثلوج من أمامها وعندما بلغت جانب سيارة الأصدقاء، نزل منها بعض

العمال برفوشهم وأخذوا يزيلون الثلوج المحيطة بها ، وبعد أن انتهوا من عملهم أصبح بإمكان السيارة التحرك ، فانطلقت من جديد بعد أن أصبحت الطريق سالكةً أمامها ..



٩ - حفلة السنة المدرسية

بعد عودة فارس إلى المدرسة ، تمكن من إقناع المدير بفكرته ، فوافق وبدأ فارس مع بعض أصدقائه في التمرين في أيام العطل الأسبوعية . وعلى هذا النحو تمكنوا من مواصلة دروسهم وتمارينهم معاً ، وفي أحد الأيام دخل عليهم مدرس مادة الفنونِ وقال :

- لدي الآن خبرٌ سار .. هذه الطريقة التي تعزفون بها تحتاج إلى بعض التهذيب .. وبما أن مدير المعهد الموسيقي صديقي ، فقد أقنعته بأن يرسل لنا طالباً من طلابه ليشرف على تدريبكم ، من الآن إلى نهاية العام الدراسي ..

وفرح الأصدقاء كثيراً بهذا الخبر وشكروا مدرس الفنون على فكرته ، وكانت مفاجأة عظيمة لفارس

عندما تبين أن هذا الطالب الذي أرسله المعهد الموسيقي لم يكن سوى صديقه الذي تعرف إليه في السيارة أثناء رحلته إلى دمشق «زياد».. كانت فرحته لا توصف فقد كان هذا آخر ما يتوقعه..

شيء آخر حصل في نهاية العام الدراسي لم يتوقعه المدير أيضاً.. كانت الحفلة التي أقيمت من أجمل الحفلات التي جرت على الإطلاق، فقد جرى توزيع الشهادات على أنغام الموسيقى التي عزفتها فرقة فارس، الذي تسلم هو أيضاً شهادته وهو يحمل القيثارة. وكُوفيء مرتين هذه السنة، بشهادته التي حصل عليها بعد الدرس والجد، وبالتصفيق الشديد الذي سمعه من الحاضرين إعجاباً بالموسيقى التي عزفتها فرقته.. وكان هذا اليوم فعلاً، يوماً لا يُنسى في حياة فارس..

الموسيقار الصغير

